حرية التعبير في الشريعة الإسلامية

د/ أحمد إبراهيم يابس *

●.. إن الناظر في واقع المسلمين اليوم عموماً وفي اليمن خصوصاً يجد خللا مدمرا في النظر إلى حجم حرية التعبير والتعامل معها، ويجد تعسفاً في فهمها وتجنياً باسمها على الثوابت والمسلمات، كما يجد خللا أكبر في حجم وطبيعة المتاح في الدفاع عن الحق وأهله بحجة المحافظة على الحريات، ولا مخرج من ذلك إلا بالفهم الحقيقي للحرية والعمل بمقتضى ذلك الفهم عن إيمان ورضا بحرمة الآخرين والمحافظة على كرامتهم حاكماً ومحكوماً، لأن الحرية لا تعني إطلاق العنان للإنسان في فعل ما يشاء بلا قيد ولا حدود فتلك هي الفوضى بعينها، وتلك هي إهدار لحرية الآخرين وعدوان على حقوق الله وحقوق المجتمع.

بل الحرية هي الثمرة والترجمة المثالية والعملية للدين الذي ينشد تحرير الإنسان من كل ألوان القيود والعبودية لغير الله تعالى الخالق، الذي أقام الوجود الإنساني على أساس الكرامة الإنسانية، قال تعالى:«ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً».

والحرية غريزة فطرية ومفهوم رائع تلتقي عنده المشاعر وتتجاوب معه العواطف وتتطلع إليه النفوس، وهي ليست شيئاً قانونياً في حياة الإنسان بل حاجة ملحة وضرورة ماسة من ضروراته، باعتبارها تعبيراً حقيقياً عن إرادته وترجمة صادقة لأفكاره، فبدون الحرية لا تتحقق الإرادة وعدم تحقيق الإرادة يعني تكبيل الإنسان ووأد كافة طموحاته وتطلعاته، وإلقاءه في هوة الضياع والموت البطيء وهو ما لا ينسجم أبدا والغاية من وجود هذا الكائن والدور المنوط به والمسئولية التي تقع على عاتقه، وبدون الحرية لا تتحقق ذاتية الإنسان وكرامته وقدرته على تقرير مصيره، وبدونها أيضا لا تتحقق سعادته «فالإنسان الذي يساق إلى غير ما يريد، ويكره على غير ما يحب، ويجرع من الأفكار والأنظمة ما لا يقبله ولا يستسيغه بحال- لا يمكن أن يكون سعيدا، ثم إن السعادة لا تتم إلا بالأمن ومن لا حرية له لا أمن له»: فالحرية إذن منحة إلهية للإنسان الذي حباه الله تعالى بكل المقومات الأخرى اللازمة خلال مسيرته الحياتية، والتي تضمن له أداء دوره الريادي على الأرض في أحسن صورة.

وقد وصف بعض الباحثين الحرية بأنها: ما يميز الإنسان عن غيره، ويتمكن بها من ممارسة أفعاله وأقواله بإرادة واختيار من غير قسر ولا إكراه، ولكن ضمن حدود معينة حيث قيدت الشريعة الإسلامية الحرية بقيدين: قيد داخلي ينبعث من صميم النفس يقوم على السيطرة على النفس والخضوع لحكم العقل والضمير ويقيد حرية الإنسان في اتباع الأهواء والشهوات والقيد الثاني قيد خارجي عن النفس ينظمه القانون، والباعث عليه هو ضعف القيود النفسية الداخلية وهو في الواقع حماية للحرية لا تقييدها.

وللحرية معان كثيرة فهي حلم الإنسان الجميل وأمله المنشود في هذه الحياة، وهي ملازمة لوجوده منذ ولادته إلى وفاته، وهي تلازم الحق في الحياة، والكرامة الإنسانية، بل وتتشابك مع بقية حقوق الإنسان في الاستقلال والمساواة والعدل، والعلم والعمل، والسلام والاستقرار ،وتحرير الفكر وتنمية العقل وتنوير الرأي، وإثبات الذات في الأحداث العامة، والتفاعل القوي مع المجتمع على أساس من ذاتية الحق والاحترام الحقيقي وسمو الوجدان ونقاوة الضمير وحرية التعبير وطمأنينة العيش وذوبان التميز العنصري، لأن الإنسان يولد حرا كريماً.

وينبع من هذه الحرية حق المساواة بين جميع البشر من غير تميز بينهم في الأصل أو العرق أو الجنس أو الحسب أو النسب أو اللون إلا على أساس التقوى وإنجاز العمل الصالح، وهذا ما راعته الشريعة الإسلامية في معنى الحرية إضافة إلى معنى آخر وهو المعنى الاجتماعي الذي يعيش فيه بصرف النظر عن كونه من هذه الطبقة أو ينتسب إلى هذه العشيرة.

كما أن له الحق أيضا أن يطمئن اجتماعياً بأن يؤمن ضد المخاطر الاجتماعية ، أي الضمانات الاجتماعية ضد الحوادث والمرض والعجز والشيخوخة والبطالة، كما أن له الحق في التمتع بالإسهام بإبداء الرأي والمشاركة السياسية، كما أن له الحق في أن يعمل في ظروف مشرفة شريطة عدم إنزال الضرر بالآخرين، لأن الإسلام أعطى الإنسان الحرية وقيدها بالفضيلة حتى لا ينحرف، وبالعدل حتى لا يجور ، وبالحق حتى لا ينزلق مع الهوى، والخير والإيثار حتى لا تستبد به الأنانية، وبالبعد عن الضرر حتى لا تستشري فيه غرائز البشر وهذا يدل على التحرر التام، وتمكين الإنسان من إثبات ذاتيته، وإصدار تصرفاته عن رؤية وعقل وحكمة واختيار ، وهذه الحرية تنبع من الأصل العام وهو مبدأ الكرامة الإنسانية، وهو الذي يقضي بصون عزة الإنسان وكرامته من كل ألوان الإهانة والإذلال، ولا سيما المسلم» ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون» وهذا يعني تحريم المساس بالمسلم- سواء أكان حاكماً أو محكوماً- ومنع خدش كرامته أو تحقيره أو الإساءة لكل ما يجب على الإنسان صونه من نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره أو موضع المدح والذم منه وما يفتخر به الإنسان من حسب أو شرف.

وقد اقتضت الحكمة الإلهية وجود أصناف الناس بنزعات ومذاهب وانتماءات متنوعة، ليتحقق التكامل والتفاوت في الكون، حيث يوجد الخير بجانب الشر، والجمال بجانب القبح، والإيمان بجانب الكفر، والكمال بجانب النقص،ولا تعرف موازين الأشياء والحكم عليها إلا بأضدادها ومقارنتها بما يقابلها وهو ما يدل على سمو الشرع الإلهي وتجرده.

ولذا تميزت الحرية في المفهوم الإسلامي بأوصاف أربعة:

الأول: أن الشريعة الإسلامية لم تكن تقرر الحرية بدافع تطور الجماعة أو تلبية رغباتها، وإنما قررتها سلفاً لرفع مستوى الجماعة وتقدم الأمة والارتقاء بها على نحو يمحو الجهل والهمجية والأمية، ويثبت ذاتية الأمة وأصالتها واستقلالها، ويضع القواعد الراسخة لإقرار مظلة الحرية على مدى الأزمان.

الثاني: إطار حق الحرية واسع وشامل كل زمان ومكان، لأن نصوص الحرية جاءت عامة مرنة لا تحتاج إلى تعديل أو تبديل، وتتناسب مع تغير الظروف والأمكنة ومضي الزمان.

الثالث: كانت صيحة الحرية قوية وشديدة اقضت مضاجع المشركين الذين يعكفون على ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، ودفعتهم للتخلص من رواسب التقليد الأعمى.

الرابع: لا تنتعش الحرية ولا يحس الإنسان بطعم ممارسة حق الحرية إلا إذا اتصف بالجرأة وقول الحق ولكن في إطار من الحكمة والكلمة الطيبة لا بالإرهاب والقسوة والتحدي فذلك يغضب ولي الأمر ويحمله على البطش والتنكيل، وهذا قيد معروف لممارسة الحرية من غير اغترار بظواهر النصوص وإطلاقها كحديث :» أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر«.

وحرية التعبير في هذا الحديث مقيد بشرط ألا يغلب على ظنه إيذاء أو ضرر للقائل أو يترتب على ذلك ضرر أكبر كما نص على هذا شراح الحديث.

كما أن حرية التعبير تنتهي عند حقوق الآخرين وإلا أصبحت فوضى فلم يكن التعبير في يوم من الأيام إساءات وهجوماً على الآخرين.

وما أحوج الإنسان المسلم الواعي خصوصاً الإعلامي لتفهم مثل هذه المعاني للحرية وهو يتعامل مع المادة الإعلامية التي يقدمها لجمهوره، وما أحوجه إليها وهو يوازن بين ما ينبغي أن يقال ومتى وكيف يقال، وبين ما ينبغي أن يترك ومتى يترك وكيفية ذلك، حتى لا يضيع الحق العام وتنتهك حرمات الله والناس بحجة المحافظة على الحقوق الشخصية، ولا يتعدى على حقوق الأفراد بدافع الأنانية والذاتية.

نعم للمرء الحق في التعبير عن نفسه والدفاع عن مصالحه والمطالبة بحقوقه من غير اعتداء ولا تجاوز على الآخرين ، كما أن له الحق في التنازل عن ذلك وتركه دون حرج أو تثريب، وهذا هو المعنى الدقيق والحقيقي للحرية في الشريعة الإسلامية، الذي يضبطها بضوابط محددة لا تقبل التأويل، ولا تهمل واجباً عاماً في سبيل تحقيق مصلحة خاصة، وترقى بالنفس إلى مستوى المسئولية الكاملة، والشعور الحي بحقوق الآخرين لكن هنا سؤال يطرح نفسه هل ما يحدث الآن في اليمن من الفتن والتخريب والاعتداء على حقوق الناس وممتلكاتهم وأعراضهم وقطع الطرقات وسفك الدماء وبث الفساد واضطراب البلاد وإضلال العباد وتوهين الأمن وهدم النظام هل تعتبر هذه الأعمال من حرية التعبير؟

لا شك أن سفك الدماء وبث الفساد واضطراب البلد وإضلال العباد وتوهين الأمن وهدم النظام لا يعتبر من حرية التعبير بل يعتبر من الإفساد في الأرض .

* أستاذ الدراسات الإسلامية المساعد
كلية التربية جامعة الحديدة

الدكتور المساعيد.. مواقف لا تنسى

نبيل عبدالكريم الحسوسة

كثيرون هم الذين ظهر معدن وطنيتهم وحبهم لليمن من خلال مواقفهم الوطنية الغيورة ولعل الأقدار هي من كشفت هذا المعدن الذي خرج عن صمته معلناً قول كلمة الحق التي لا تنسى.. ففي كثير من الأزمات التي حلقت بسماء اليمن الحبيب تأتي أدوار بطولية مرصعة بالوطنية والشعور بالقومية العربية لعدد من رواد الأدب والفكر السياسي والصحافة العربية ولا ننسى مواقف عميد الرأي الكويتي أ- د/ عبدالعزيز المساعيد صاحب القلم الأحمر رحمة الله عليه الذي ظل طيلة حياته العملية يدافع عن اليمن ويقف وقفة صلبة شريفة ضد من تسول له نفسه للمساس باليمن فأثناء أزمة الخليج ونظراً للموقف اليمني من الأزمة وإن صح الاعتذار لدولة الكويت الشقيقة في هذا الوقت وللدكتور المساعيد رحمه الله الذي طالما تفهم للموقف اليمني وحاول دون كلل إنصافه في كتاباته المتعددة دفاعاً عن اليمن وقيادته السياسية أمام الرأي العام الكويتي ولم يقف المساعيد بمصداقيته عند هذا الحد إنما ظل يمهد لتسوية العلاقات السياسية بين اليمن ودولة الكويت الشقيقة كما كان لوقفته الشجاعة التي ستظل بذاكرة التاريخ خلال أزمة صيف 94م حينما أعلن الانفصاليون حربهم في محاولة لإعادة اليمن إلى ما قبل 22 مايو 1990م لقد كان الدكتور المساعيد في أول الصفوف دفاعاً عن الوحدة اليمنية المنجز التاريخي الذي اعتبره ويعتبره الكثير منجزاً تحقق لليمن والأمة العربية والإسلامية ككل وقد استنكر في العديد من كتاباته التي تطرقت إلى الدفاع عن اليمن ووحدته بمن يمولون ويقفون خلف جدار الردة والانفصال فعلاً استحق العميد المساعيد أن ينال وسام الوحدة في الدرجة الأولى وأن يحظى بمواقفه القومية بمحبة كل اليمنيين إلى أن اختاره الرفيق الأعلى إلى جواره وها نحن اليوم في خضم الفتنة والأزمة والمنعطف الخطير الذي يواجه اليمن نكتشف أن المساعيد لم يمت روحاً وإنما ظلت روحه محلقة في ظلال سماء محبته لليمن السعيد فقد برز الكثير ممن تحلو بمواقفه القومية العربية الكثير من رفاق المساعيد الذين أعتقد أنه قد حملهم أمانة حب اليمن ومن هؤلاء الأستاذ أحمد الجار الله رئيس تحرير صحيفة السياسية الكويتية والأستاذ الكاتب محمد بن أحمد الشدي صحيفة الجزيرة السعودية والكثير ممن غاب عن ذهني ذكر أسمائهم في هذه السطور المعبرة عن اعتزاز وفخر بما قدمه هؤلاء في سبيل الدفاع عن اليمن والخروج به من محنته السياسية التي قد تؤدي في ظل الاختلاف إلى صراع دموي سيذكره العالم مستقبلاً أنه كان في يوم من الأيام اليمن السعيد حسب ما سطره أحمد الجار الله في كتاباته.